دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 39، العدد 2، 2012

ثقافة اللغة طريقٌ أم هدف: مقاربة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

فاطمة محمد العمري *

ملخص

ثقافة اللغة جزء حقيقي من جوهرها، لا يمكن بأي حال فصلها عنه، ولا بد من أن يعي المتعلمون والمعلمون ذلك حتى يُصار إلى التركيز عليها كواحد من أنظمة اللغة التي تحكمها إلى جانب النظام الصوتي والصرفي والمعجمي والنحوي. لأن هدف المتعلمين الجدد أن يكونوا أفراداً مقبولين اجتماعياً بالنظر إلى قدراتهم اللغوية التي ستمكنهم – بعد أن يتمثلوا البعد الثقافي الاجتماعي للغة – من التواصل الفعال مع أبناء اللغة الأصليين. وهذا ما يقدمه البحث ويناقشه مستأنساً بآراء مجموعة من متعلمي العربية لغة ثانية.

الكلمات الدالة: اللغة، الثقافة، المجتمع، التعلُّم، التعليم.

المقدمـة

يتناول هذا البحث اللغة من حيث هي وعاء الفكر، وحاضنة الثقافة التي تصدر عن المجتمع بوعي خاص أحياناً، ولاوعي عام في كثير من الأحيان. فاللغة تتمثل في تجليات الحضارة بشقّيها المادي والمعنوي وتُمَثِّلها، وهو الأمر الذي يجعل منها حقيقة ثقافية مجردة تصدر عن مؤلِّفات النظام الكوني، وتصدر عنها تلك المؤلِّفات.

واللغة في هذا جزء من كل، وكل له أجزاء متعددة في فلك نظام حياة كل مجتمع، ولابدّ لتَمثُّلها ووعيها ومحاولة اكتسابها من إدراك كيفياتها، وآليات المجتمع الذي يمثل جماعتها اللغوية بالصدور عنها وفق كيفيات خاصة قد تتشارك الجماعات اللغوية المختلفة في بعضها أحياناً، لكنها تختلف وتتباين في كثيرٍ منها دون شك.

وللجماعة اللغوية الناطقة بالعربية شأن خاص تنفرد به عن سائر الجماعات اللغوية الأخرى في تعاملها مع اللغة واستخدامها؛ إذ تختلف مواقع المسكوت عنه – لغوياً– في الثقافة اللغوية العربية عن غيرها، كما تختلف الإشارات فوق اللغوية وتحت اللغوية في العربية عن غيرها من سائر اللغات. كما تتماز العربية بقدسية تمتد في كثير من الأحيان لتختصَّ باللغة من حيث هي لغة، وهو ما لم يتح للغات الأخرى.

هذا البحث لا يسعى إلى مقاربة العربية بغيرها من اللغات، وإن اقتضت محاوره شيئاً من ذلك، إلا أنه يهدف إلى بيان دور الرابط الوثيق بين اللغة والفكر في مجتمع الناطقين بها في جعلها مادة أكثر قابلية للتعلم من قِبل غير أبنائها، أو أبنائها أنفسهم.

ولأن متعلمي العربية من غير أبنائها يُصْدَمون – غالباً – منذ اللحظات الأولى بالفروق الثقافية بين مجتمعاتهم والمجتمع العربي التي تمتد عبر أسلوب التحية[1] وطولها وقصرها واختلاف كيفياتها باختلاف الأعمار والأجناس، ولا تكاد تلك الفروق تقف عند حدٍّ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي وراء كتابة هذا البحث، وهو الوقوف على أهم المحاور الثقافية التي من شأنها – إن أخذها المعلمون والمؤلفون بعين الاعتبار – أن تُهوِّن على الطلبة، وتَجْسُر تلك الهوة السحيقة بينهم وبين المجتمع العربي من خلال اللغة.

وعليه فإن هذا يفرض ما يجوز لنا أن نسميه مستويات لغوية ذات أبعاد فكرية ثقافية معلومة بالضرورة لجمهور المتعلمين سواء كانوا من أبناء لغات أخرى، أو من أبناء ثقافات أخرى ضمن الجماعة اللغوية العامة (الناطقين بها، وهم مجتمع الذين ينطقون باللغة على أنها لغتهم الأولى من حيث الإتقان والاستعمال).

ويقوم البحث على استبيان يستهدف مجموعة من الطلبة الذين يتعلمون العربية لغة ثانية من الأجانب والذين يتعلمونها وهم ينطقون بها وهم ذوو الأصول العربية الذين لا يجيدون العربية وإن كانوا ينطقون بها. ويأتي هذا الاستبيان بغية أن

* المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، الجامعة الأردنية.
تاريخ استلام البحث 2011/9/11، وتاريخ قبوله 2012/5/23.

© 2012 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

يتحرر البحث من القيد التنظيري فيكون دراسة تطبيقية واضحة الاتصال بواقع العربية وهو هدف البحث وقوامه.

عينة البحث:

الطلبة الذين يمثلون عينة البحث، هم عينة عشوائية من طلبة المستويين المبتدئ والمتوسط[2] (أي المستويات: الأول والثاني والثالث) من طلبة المعهد الدولي لتعليم العربية للناطقين بغيرها في الجامعة الأردنية في عمان في الفصل الدراسي الأول من العام الجامعي 2010–2011، وعددهم أربعون طالباً. وتتراوح أعمار أفراد العينة ما بين السابعة عشرة والستين، وهم من جنسيات مختلفة: أمريكية، وبريطانية، وألمانية، وسويدية، وفرنسية، وكورية جنوبية، ويابانية، وصينية، وأذربيجانية، وشيشانية، وروسية، وتايوانية، وكوبية، وإسبانية، يونانية، وتركية.

الاستبيان:

يقوم الاستبيان على ثلاثة عشر مؤشراً [3] هي:

1- أريد أن أعرف الفروق اللغوية المهمة بين لغتي واللغة العربية من الناحية الاجتماعية.

2- أحتاج إلى معرفة ظروف توظيف المفردات والتراكيب التي أتعلمها.

3- أحتاج إلى تعلم التعبيرات الاصطلاحية.

4- أحتاج إلى تعلم بعض الأمثال الضرورية (الشائعة).

5- أحتاج إلى تعلم لغة الجسد.

6- أريد أن أعرف مدلولات الرموز والعلامات.

7- أحتاج إلى تعلم الفرق بين مخاطبة الرجل والمرأة.

8- أريد أن أعرف الفروق اللغوية الاجتماعية بين أبناء الطبقات المختلفة في المجتمع العربي.

9- أريد أن أعرف التعبيرات المقبولة اجتماعياً.

10- أريد أن أعرف التعبيرات المرفوضة اجتماعياً.

11- أريد أن أعرف السلوك المرغوب به اجتماعياً.

12- – أريد أن أعرف السلوك المرفوض اجتماعياً.

13- أحتاج إلى معرفة أدبيات الخطاب.

ويجيب أفراد العينة عن هذه المؤشرات وفقاً للمتغيرات الآتية:

دائماً، غالباً، قليلاً، نادراً، أبداً.

وسيقوم البحث على المنهج الاستقرائي في إجراء العينة، ثم سيعتمد المنهج التحليلي في مراجعة نتائج الاستبيان وقراءته، وسيبني بعد ذلك نتائجه في ضوء اللسانيات اللغوية التطبيقية وعلم اللغة الاجتماعي.

اللغة والثقافة:

لقد بات من القار في الدراسات اللغوية أن اللغة ليست مجرد أداة تواصل، ولا هي مجموعة من الأصوات التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وحسب؛ إذ تجاوزت ذلك بمراحل وأصبحت جسراً للتواصل وتوحيد المفاهيم بين الأفراد والجماعات والأجيال، وفي الوقت ذاته أصبحت عائقاً أمام التواصل فهي الجسر والحاجز في آن معاً، كما أنها حصن الشعوب وملاذها الآمن للدفاع عن هوياتها وهي سجن العقول والأفكار، وهي أداة بناء المعاني والحياة من حيث هي معول هدم المعاني والحياة، وهي وسيلة انضمام الفرد للجماعة وهي القادرة على استبعاده، وهي متجددة من حيث هي ثابتة[4]. واللغة عند كثير من العلماء[5] "وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية" فهي بوابة المجتمع المُشرعة التي تستقبل كل راغب بالدخول إن هو بذل جهده وأبدى استعداده. واللغة على خطورتها في حياة الفرد والجماعة فهي تنتظم مستويات عدة، وتقدم نفسها لأبنائها ولغيرهم بوجوه متعددة قد يصعب إحصاؤها وتتبعها[6]. وعليه فإن مهمة إتقان اللغة – أية لغة – مطلب عزيز بالفعل، ولابُدّ لهذا الأمر من أن يكون ماثلاً أمام كل من يرغب في تعلُّم لغة ما أو تعليمها. وإذا كان الحديث هنا يتناول تعلم اللغة وتعليمها فإنه لا بد من الإشارة إلى أن اللغة من حيث هي مادة تعليمية لا تقتصر على مجموعة القوانين والأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، بل هي نظام أوسع من ذلك بكثير يمتد ليؤثر في الأنظمة السلوكية والإشارية المرتبطة بالإفادات المجتمعية الناتجة عن تقديرات مجتمعية سابقة تواضع المجتمع على الاعتراف بها وقبولها في ظل شروط وضعها هو بنفسه – أي المجتمع – فصارت اللغة بذلك محاطة بشروط ثقافية خاصة تحكمها أعراف كل مجتمع وتواضعاته المسبقة تجاهها. ومن هنا صارت للغة مستوياتها التي تصح في ظروف تخاطبية بأعيانها، ولا تصح في غيرها، وتليق ببعض الناطقين بها دون غيرهم وهكذا. وهذه الشروط التي نتحدث عنها يتعلمها ابن اللغة من مجتمعه الناطق – ربما – دون وعي أو قصد ممن يُعلِّم أو يتعلم ذلك أن أبناء المجتمع يلتزمون بشروط ثقافية واجتماعية لغوية دون وعي حقيقي منهم بذلك. أما متعلم اللغة الجديد فإنه لن يتمكن من التقاط الإشارات الثقافية والشروط المجتمعية التي تكتنف عملية الخطاب بحدسه أو بوعيه ولا بجده ومثابرته في الدرس. ذلك أن كثيراً من الدروس تغفل ثقافة اللغة؛ إذ تُقدم اللغة في كثير من الأحيان على أنها حروف متضامة وكلمات مجتمعة وفق نظام نحوي مخصوص، دون مراعاة الأبعاد الاجتماعية والشروط الكلامية الخاضعة للمجتمع، وليس للنظام اللغوي علاقة بها.

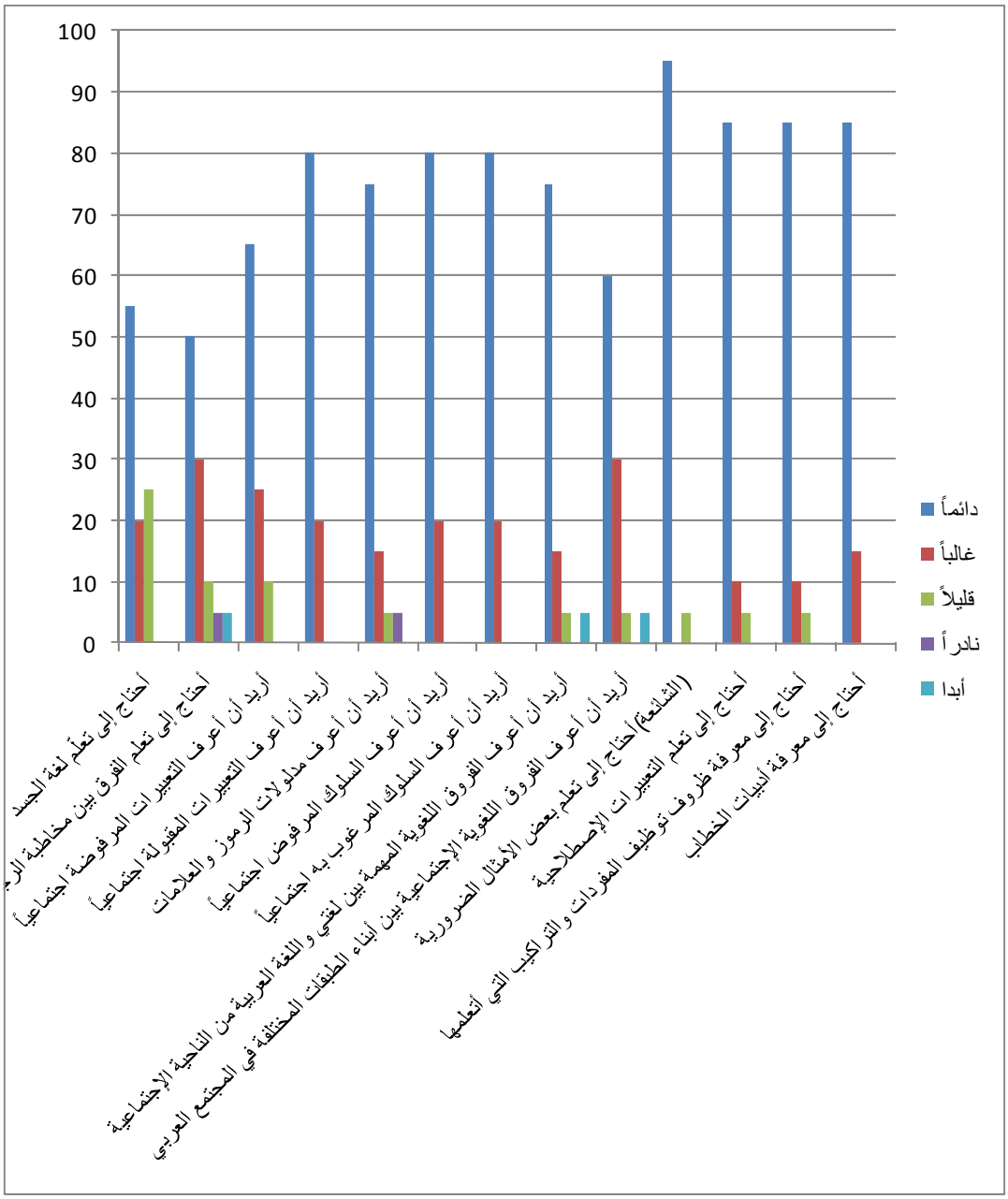

وفرضية هذا البحث هي ضرورة تقديم ثقافة اللغة لمتعلم اللغة من الناطقين بغيرها والتركيز عليها. ويرى عدد من الباحثين أن ثقافة اللغة من الأساسيات التي يجب تقديمها للمتعلم من غير الناطقين بالعربية. وهو ما يُصَرِّح به مؤلفو الكتاب الأساسي الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بقولهم: " والأساسيات بهذا المعنى لا تقتصر – بالطبع– على الأبجدية والصوتيات وبنية الكلمات وتركيب الجملة بل تشمل إلى جانب ذلك – بل وفوق ذلك – المضمون الحضاري الذي تعبر عنه اللغة العربية بكل ما لديها من ثروة وفعالية تعبيرية تجمعت لدى أبنائها، ورسخت فيهم من خلال عبقرية الزمان والمكان"[7]. وهذا أمر مهم للغاية إذ؛ "ليس ثمة فعل كلام (speech act) فردي، بل إنه دائماً اجتماعي، ولو كان المخاطَب يوجد دائماً في مخيلة المتكلم. وبالتأكيد، فإن أي كلمة ننطقها تولد بتفاعل مع جمهور نتخيله داخل أذهاننا، قبل أن يوجد أي جمهور حقيقي يسمعها أو يقرأها على الإطلاق"[8]. ففاعلية الكلمات وجدوى الجمل والنصوص لا يجري اختبارها على نطاقات فردية معزولة، وإنما يجري تعريضها للجماعة اللغوية الناطقة التي يصدر عنها ما يزيد

على فاعليتها وجدواها من غير ذلك. وهذا يعني أن المجتمع يفرض نفسه على اللغة والعكس صحيح بالضرورة. فاللغة تؤدي أدواراً مهمة في السلوك الجماعي؛ إذ تمكن المجتمع من الاتصال والتذكر والتخطيط والإحساس والإرادة [9]. وهذا يعني أنها النبض الحقيقي للمجتمع الناطق بها، ولكل مجتمع خصوصيته النابعة من تاريخه وجغرافيته وعلاقاته ولغته بالتأكيد؛ لذا لا بدّ من التركيز على الفروق اللغوية الاجتماعية بين لغة المتعلم الأم واللغة الهدف. – وهي هنا العربية – من الناحية الاجتماعية؛ ويدعم ذلك أن 75% من أفراد عينة الدراسة رأوا أن هذا يجب أن يحدث "دائماً" بالإضافة إلى 15% منهم قالوا بأنه يجب أن يحدث "غالباً"، وهذا يعني أن 90% من أفراد العينة يتفقون مع وجهة نظر البحث في أهمية معرفة الفروق اللغوية الاجتماعية، في حين أنّ 5% من أفراد العينة وجدوا أنهم يحتاجون ذلك "قليلاً"، و5% رأوا أنهم لا يحتاجونه "أبداً".

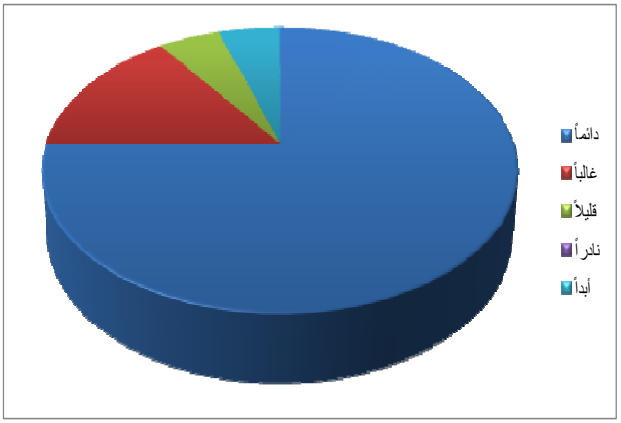

إن الهدف المنشود دائمًا – لدى متعلم اللغة – هو نفي شعور الغربة الاجتماعية التي يعكسها الأداء اللغوي عند الناطق الجديد. وذلك عن طريق إكسابه اللغة من وجهة اجتماعية، وهي ما يُمكِّنه من الدخول إلى المجتمع بثقة وثبات. فالناطق الجديد قد يمتلك مجموعة من المفردات والتراكيب الخاصة بحالة اجتماعية معيَّنة غير أنه قد يكون قاصرًا عن المواءمة بين حصيلته اللغوية والموقف الاجتماعي فلا يتمكن من الربط بينهما. وعندها لا يكون ثمّة معنى لمعرفة المفردات والتراكيب واستظهارها. وعلى سبيل المثال تكون معرفة مفردات وتراكيب من مثل: (أنا حزين من أجلك، رحمه الله، أرجو أن يكون من الصابرين، أدعو الله أن يكون من أهل الجنة، ألهمك الله الصبر والسلوان، إنا لله وإنا إليه راجعون، لله ما أعطى ولله ما أخذ، أحسن الله عزاءك....) دون استثمارها في مواقف التعزية – وإن لم يكن الناطق الجديد ممن يؤمنون بتوجهات المجتمع، كأن تختلف معتقداته الدينية مثلاً، فهو مُطالب بإقناع المجتمع بكفاءته في الانضمام إليه من خلال مظهره اللغوي. وهو الأمر الذي سينعكس عليه بالضرورة فيشعر أنه فرد منتمٍ لجماعة، وإن كان هذا الانتماء شكلياً غير متعلق بالمبادئ والمعتقدات. وهو – أي الانتماء الحقيقي أو الشكلي – ما نطالبه به أن يكون عضواً فاعلاً في الجماعة اللغوية.

وقد رأى 85% من أفراد عينة البحث أنهم يحتاجون إلى معرفة ظروف توظيف المفردات والتراكيب التي يتعلمونها "دائماً"، ورأى 10% أنهم يحتاجون ذلك "غالباً" بمعنى أن 95% من أفراد العينة مجمعون على أهمية ذلك الأمر، كما أجاب 5% من أفراد العينة بأنهم يحتاجون إلى تعلمها ب "قليلاً" وهذا يعني أن الطلبة بشكل عام يتفقون بل يجمعون 100% على حاجتهم إلى هذا. إذ لم يُجب أي من أفراد العينة عن هذا السؤال بـ "نادراً" أو "أبداً" وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أهمية هذا الأمر.

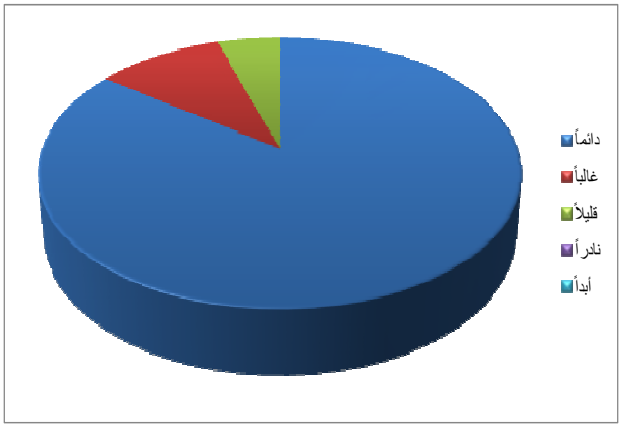

ومن ذلك تَعَلُّمُ الناطق الجديد التعبيراتِ الاصطلاحيَّةَ: وهي صنف من التعبيرات المجازية، تَرِد في كل لغة حسب النظام الخاص بتلك اللغة. والتعبير الاصطلاحي وحدة دلالية واحدة تتألف من كلمتين أو أكثر [10]، وقد تمتد لتصل إلى جملة. وتتواضع الجماعة اللغوية على استعمالها على نحو مخصوص، وقد تكون لها مواقع دلالية مهمة في وظيفة اللغة بشكل عام، ولا بُدّ من معرفتها ليمتلك الناطق بها أو بغيرها ممن يتعلمونها القدرة على التواصل مع أبناء الجماعة اللغوية. ومثال ذلك في العربية قولنا: "قلبه حجر" للدلالة على القسوة وانعدام الرحمة. وقولنا: "جفّت مدامعه" للدلالة على شدة الحزن، وقولنا: "يُقطِّع القلب" للدلالة على سوء حاله، وقولنا:"عظمه ذهب" للدلالة على الثراء. وغير ذلك الكثير

الكثير من التراكيب التي لا يستقيم للناطق الجديد أن لا يعرف أنها تراكيب مجازية لا يمكن فهمها أو استعمالها بالمعنى الحرفي لكل كلمة في التركيب على حدة، فَيُخَيَّل للناطق الجديد أن قلب أحدهم حجر وليس عضلة تضخ الدم المُحمَّل بالأوكسجين لسائر الجسد مثلاً! وهكذا.

ولعله غير خافٍ أنّ معرفة هذه التعبيرات تُساهم في جسر المسافات أمام الناطق الجديد، فبدلاً من قولنا: "لقد حزنَ حزناً شديداً طالت مدّته وظل عاكفاً يبكي ويتألم"، نكتفي بالتعبير الاصطلاحي: "جفت مدامعه". وليس هذا الملحظ جديداً في الدرس اللغوي والبلاغي، فقد تنبه العرب إليه منذ القدم، وهو عينه ما عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة إفادة"[11].

وهذا الملحظ مفيد في التنبُّه إلى أهمية عامل الزمن لدى الناطقين الجدد، وحاجتهم إلى تعلُّم جوامع الكلم. ولعله من المفيد هنا أن ننوه على أن هذا يقترب كثيراً من فكرة (البراجمانية) في تعليم اللغة الثانية، وهي كيفية توظيف الكلمات في السياق من أجل تحقيق الرسالة اللغوية بأعلى كفاءة ممكنة له[12]. ولدى سؤال أفراد العينة عن حاجتهم إلى تعلم التعبيرات الاصطلاحية أجاب 85% منهم بـ "دائماً"، وأجاب 10% بـ "غالباً"، وأجاب 5% منهم بـ "قليلاً"، ولم يذهب أي منهم إلى الخيارين "نادراً" و"أبداً"، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أهمية هذا المنحى.

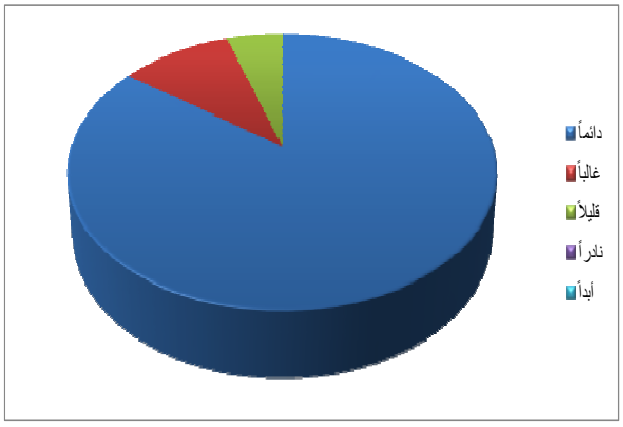

وتوفّر الوقت والجهد، وتقرب الناطق الجديد من المجتمع الهدف، تعلم بعض الأمثال الشائعة التي ما ينفك أبناء المجتمع يردّدونها في مواقف بأعيانها مكتفين بها عن التعبير بغيرها من المفردات والتراكيب والجمل. وقد تبين بعد سؤال أفراد العينة عن حاجتهم إلى تعلم الأمثال الشائعة أن 95% منهم يريدون ذلك "دائماً"، في حين أن 5% منهم فقط يريدون ذلك "قليلاً"، ولم ير أحد – بالطبع – أنه يريد تعلمها "نادراً" أو أنه لا يريد ذلك "أبداً".

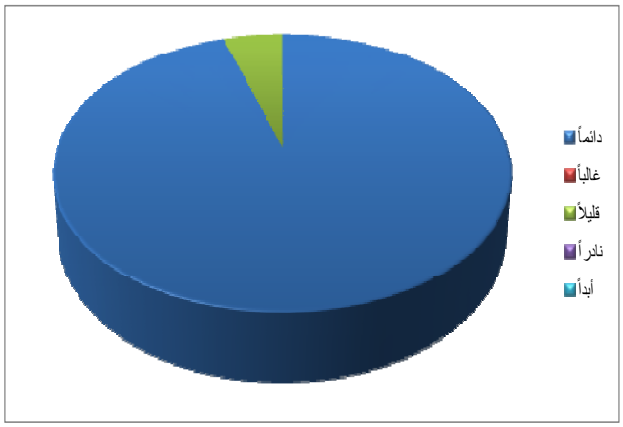

قريب الوجه واليد واللسان:

قد لا نجانب الصواب إن قلنا: إن تعلم اللغة من حيث هي مؤلفات تركيبية شفوية كانت أو مكتوبة ليس كافياً أبداً – وإن جرى تعلمها إلى درجة عالية من الإتقان – لأن المؤلفات غير التركيبية لا تقل أهمية بأي حال من الأحوال عن تلك التركيبية. ونعني بالمؤلفات غير التركيبية كل ما يعد عنصراً في الجملة دون الألفاظ [13]، وهي: النبر، والتنغيم، وإشارة الكف، وإيماءة الطرف التي صارت عرفاً اجتماعياً قائماً مقام الألفاظ والجمل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة. وهو ما يقابل شعب بوان الذي تحدث عنه أبو الطيب[14] بقوله:

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع مـن الزمان
ولكـــن الفتى الـعربي فـــيها
غريب الوجه واليد واللسان

فما نريده لمتعلم اللغة الثانية بشكل عام ومتعلم العربية بوجه خاص أن يكون قريب الوجه واليد واللسان، فتكون تعابير وجهه وحركات يديه مساندة لمفرداته يستعملها على النحو الذي يرتضيه أبناء العربية ويفهمونه ويتواصلون من خلاله وفي ضوئه. وقد تنبه العرب القدامى إلى أهمية هذه التعبيرات والحركات، يتجلى ذلك في قول عبد القاهر الجرجاني: "بيان ذلك أن تقول:(نطقت الحال بكذا)، و(أخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره) و(كلمتني عيناه بما يحوي قلبه)؛ فتجد في الحال وصفاً هو شبيه بالنطق من الإنسان. وذلك أن الحال تدل على الأمر، ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء كما أن النطق كذلك. وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها، وخواص أوصاف يتحدد بها ما في القلوب من الإنكار والقبول"[15]. ولدى سؤال أفراد العينة عن مدى حاجتهم إلى تعلم لغة الجسد أجاب 55%

بـ "دائما"، وأجاب 20% بـ "غالبا"، وأجاب 25% بـ "قليلا". وهذا الإجماع يؤكد ما ذهبنا إليه من أن تعلم لغة الجسد أمر مهم ذلك أن أيّ أحد من أفراد العينة لم يجب عن هذا المؤشر بـ "أبداً" و"نادرا".

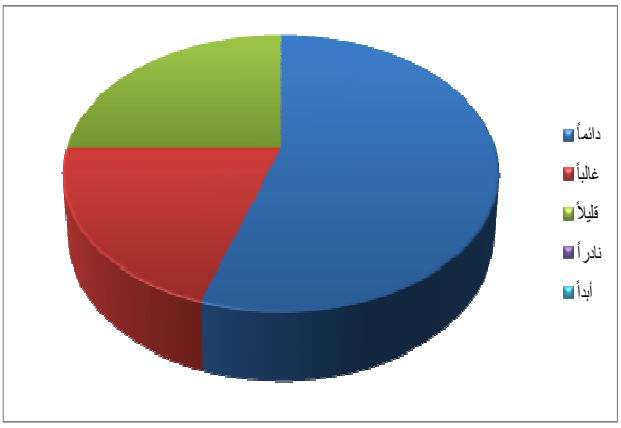

ومن المفيد لمتعلمي اللغة الجدد أن يعرفوا مدلولات الرموز والعلامات التي يستعملها المجتمع لتؤدي وظائف لغوية بالنيابة عن اللغة، لأنها أدوات حقيقية من أدوات التواصل وأجزاء مهمة لا يمكن إسقاطها من الخطاب. وقد تنبه أفراد عينة البحث إلى أهمية تلك الرموز والإشارات لأنهم عاينوا حاجتهم إليها بأنفسهم من خلال تجاربهم الخاصة في تعلم اللغة العربية، والاحتكاك بأبناء المجتمع العربي، فعبّر 90% منهم عن حاجتهم إلى تعلمها؛ إذ رأى 75% منهم حاجتهم الدائمة إليها، ورأى 15% منهم حاجتهم الغالبة إليها، غير أن 5% منهم وجدوا حاجتهم إلى تعلمها قليلة، بينما قيّم 5% منهم حاجتهم إلى تعلمها نادرة، وهذا يعني أنهم جميعاً بحاجة إلى تعلمها وإن قلت حاجة بعضهم إليها.

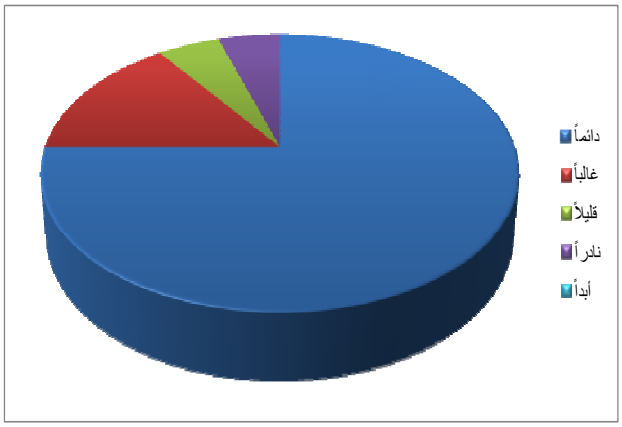

لابد للفرد ليتمكن من نفي شعور الغربة الاجتماعية ويحصل على قبول أفراد المجتمع له بينهم ليصبح ناطقاً بلغتهم قادراً على التواصل بها، من أن يكون متحدثاً لبقاً بصرف النظر عن مستواه اللغوي؛ فهو، سواء أكان متعلماً في المستوى المبتدئ أم المتوسط أم المتقدم، لا بد له من اللباقة الاجتماعية اللغوية. ولا تتحقق تلك اللباقة لمتعلم اللغة إلا إذا جرى تعليمه اللغوي وفقاً لبنية المجتمع؛ فبعض المجتمعات وعلى رأسها المجتمعات العربية تقوم على فروقات شديدة بين أبنائها[16] بالنظر إلى جنسهم (أنثى – ذكر)، أو سنهم (كبير – صغير)، أو طبقتهم الاجتماعية (غني – فقير)، أو غير ذلك. والقصد هنا أن اللغة العربية تستعمل صيغة خاصة لخطاب المؤنث تختلف عنها في خطاب المذكر. وحديثنا هذا ليس عن الصيغ الصرفية التي تسير وفقاً للأنظمة النحوية كأن نقول:

افتح الباب يا محمد، وافتحي الباب يا سلمى. فهذا من الأمور التي يتعلمها الطلبة بالتأكيد، ولكن الشأن هنا الفرق في الخطاب الاجتماعي؛ إذ يصير الخطاب مقبولاً أو مرفوضاً بالنظر إلى المُخاطِب والمُخاطَب؛ إذ يصح بعض الكلام – اجتماعياً بين الإناث أو الذكور ولايصح مطلقاً بين الإناث والذكور من وجهة نظر المجتمع العربي. في حين لا تلقي كثير من المجتمعات الأخرى بالاً لمثل هذه الاحترازات. ولعل المجتمع العربي محكوم بكثير من الشروط الدينية والأعراف القَبَلِيَّة غير الموجودة في مجتمعات أخرى، مما لا مجال لذكره هنا وهو معلوم عند معظم الدارسين. فجملة: فستانك جميلٌ[17]. صحيحة من وجهة النظر اللغوية طبعاً. وصحيحة مقبولة من وجهة النظر الاجتماعية إذا كان المُخاطِبُ فتاةً والمُخاطَب فتاة أخرى، ولكنها تصبح جملة خاطئة مرفوضة من وجهة النظر الاجتماعية إذا صدرت عن رجل لفتاة من غير محارمه أو المقربات منه، لما تحمله من مدلولات لا يقبلها المنطق الاجتماعي العربي، ولما ترتبط به من قضايا تعبر عن الشرف والعرض. وقد تبين من سؤال أفراد العينة أن 50% منهم يحتاجون إلى معرفة الفرق بين مخاطبة الرجل والمرأة "دائماً"[18]، وأن 30% منهم يحتاجون ذلك "غالباً"، وأن 10% يحتاجون ذلك "قليلاً"، وأن 5% يحتاجون ذلك "نادراً"، وأن 5% منهم لا يحتاجون ذلك "أبداً".

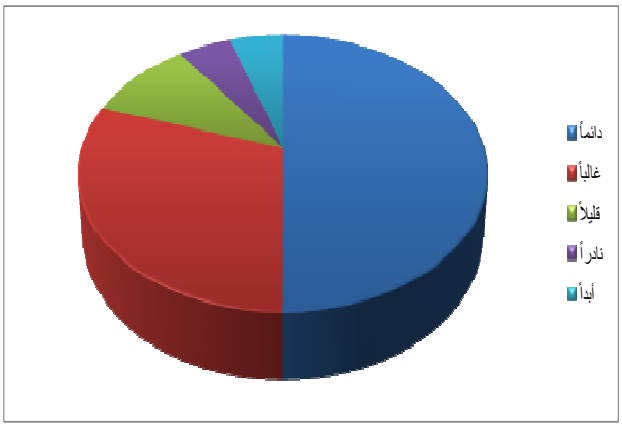

ولعل هذا يصدق على خطاب الصغير للكبير والعكس، وخطاب الأدنى للأعلى وهكذا؛ فقد يصح استبدال إيماءة العين بالمفردات بين المتساوين بالعمر أو الطبقة الاجماعية أو الرتبة والمنزلة في حين لا يصح ذلك أبداً بين مَن هم مِن فئتين مختلفتين؛ كأن تكون من الصغير للكبير أو من الأدنى للأعلى. ويرى 60% من أفراد العينة أنهم يريدون أن يعرفوا الفروق اللغوية الاجتماعية بين أبناء الطبقات المختلفة في المجتمع العربي "دائماً"، ويرى 30% أنهم يريدون ذلك "غالباً"، ويرى 5% منهم أنهم يريدون ذلك "قليلاً"، في حين رأى 5% منهم أنهم لا يريدون ذلك "أبداً".

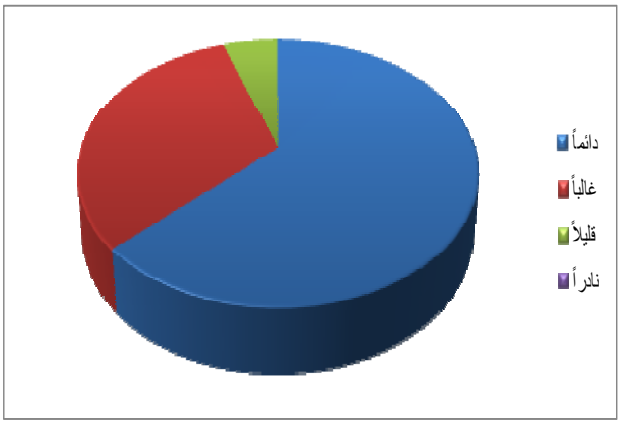

هذه الفروق اللغوية لابد من أن تجد لها موقعاً في درس اللغة الثانية لأن من شأنها أن تنقل التعبير اللغوي من دائرة القبول الاجتماعي إلى دائرة الرفض والعكس؛ فقد أجمع كل أفراد العينة على أنهم يحتاجون إلى تعلم التعبيرات المقبولة اجتماعياً؛ فقد رأى 80% منهم أنهم يحتاجون ذلك دائماً، ورأى 20% منهم أن يحتاجونها غالباً.

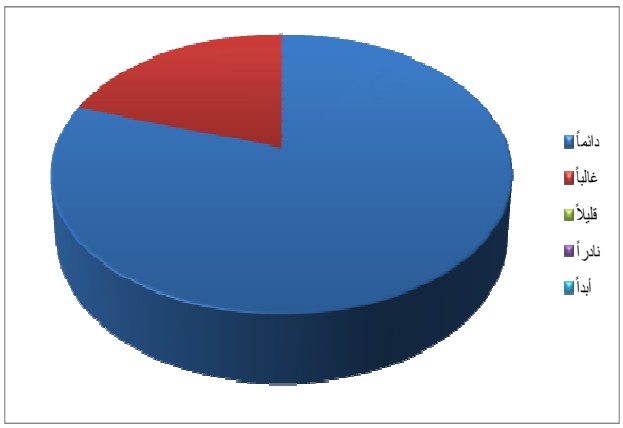

وقد أشار الجاحظ إلى هذا بقوله: " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالةٍ من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[19].

ولعل ذلك المؤشر يدل على إيجابية نظرة أفراد العينة لأنهم أجابوا عن السؤال المقابل وهو المتمثل في حاجتهم إلى تعلم التعبيرات المرفوضة اجتماعياً على نحو أكثر تفصيلاً، فقد رأى 65% منهم حاجتهم الدائمة إلى تعلمها، ورأى 25% حاجتهم الغالبة إلى ذلك، ورأى 10% منهم حاجتهم القليلة إلى ذلك.

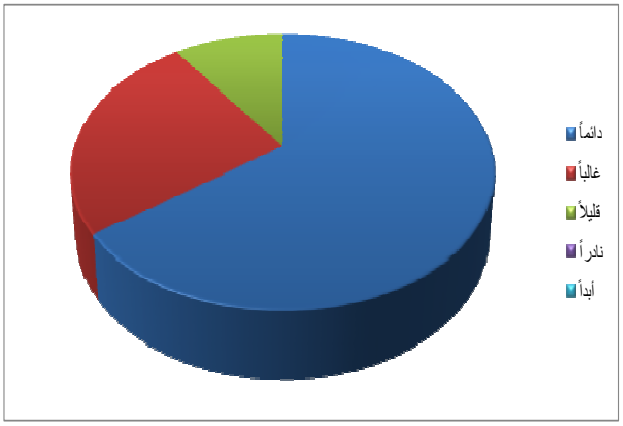

وهذا مرتبط بالسلوك فقد أجمع أفراد العينة على أنهم يريدون معرفة السلوك المرغوب به اجتماعياً؛ إذ أجاب 80% أنهم يريدون ذلك دائماً و20% يريدون ذلك غالباً، بينما لم يجب أحد من أفراد العينة بأنه يريد ذلك قليلاً أو نادراً أو أبداً.

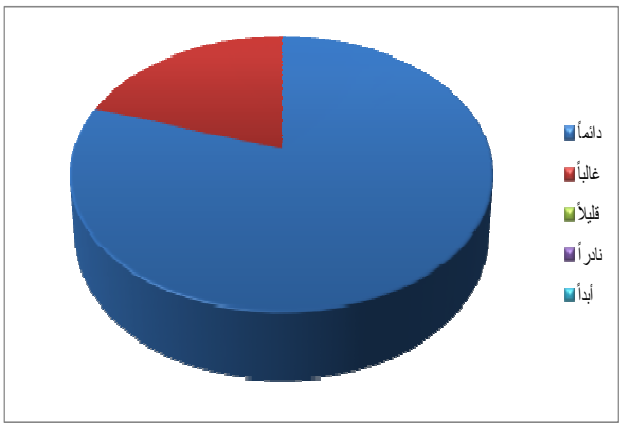

كما أجمع أفراد العينة على الرؤية ذاتها في رغبتهم بمعرفة السلوك المرفوض اجتماعياً؛ إذ رأى 80% منهم أنهم يريدون ذلك دائماً، و20% أنهم يريدون ذلك غالباً. وهم في هذا أيضاً لم يجيبوا بـ "قليلاً"، أو "نادراً"، أو "أبداً".

ويتضح من خلال قراءة المؤشرين السابقين أن المتعلمين

يرغبون بشدة في أن يصبحوا أعضاء فاعلين في المجتمع، وذلك لرغبة أفراد العينة الشديدة بتعلم السلوكات المرغوبة ليتبنوها، ولرغبتهم في تعلم السلوكات المرفوضة ليتجنبوها، فيحسنوا بذلك من أدائهم الاجتماعي فيكونوا أفراداً مقبولين أكثر في المجتمع الجديد.

إن ما سبقت الإشارة إليه يعني أن متعلمي اللغة من الناطقين بغيرها محتاجون بصفة عامة إلى تعلُّم أدبيات الخطاب، وهذا ما يجمع عليه أفراد عينة البحث؛ إذ وجد 85% منهم حاجتهم إلى تعلُّم أدبيات الخطاب دائمة، ووجد 15% منهم حاجتهم إلى تعلُّمها غالبة، بينما لم يجد أحد أن حاجته إلى تعلمها قليلة أو نادرة، أو أنه في غير حاجة إليها. وهذا مؤشر واضح على أهمية هذا الأمر لمتعلمي اللغة الجدد.

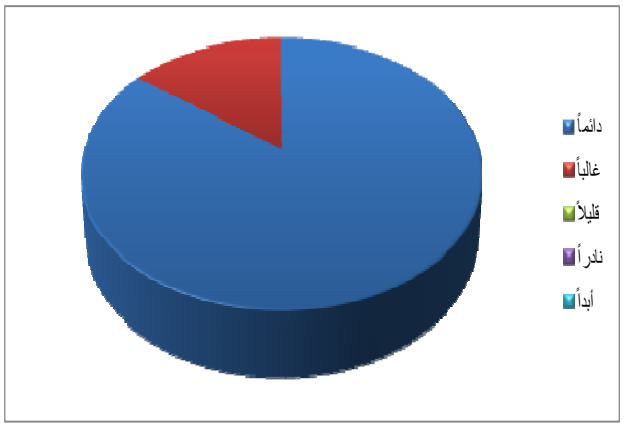

هناك رابط حقيقي بين تعلُّم لغة ثانية وتعليمها وبين فرضيتي جاك دريدا المتمثلتين في[20]:

1- لا يمكن أبداً أن نتكلم إلا لغة واحدة، أو بالأحرى لساناً واحداً.

2- لا يمكننا أن نتكلم لغة واحدة فقط، أو لاوجود للسان خالص.

ولعل هاتين الفرضيتين تصدقان تماماً في ميدان تعلُّم العربية من غير الناطقين بها، فالفرضية الأولى تصدق في حال كنا نتحدث عن وجود الناطق الجديد ضمن أحد المجتمعين دون الآخر؛ فالعربية هي اللغة الوحيدة التي يمكن للفرد أن يتكلم بها في المجتمع العربي الذي لا يستعمل سوى لغته الأم، وهذا يصح عند الحديث عن المناطق الأقل انفتاحاً. أما الفرضية الثانية فتصدق غالباً – عندما يتعلق الأمر بمتعلمي اللغات – في مجتمع اللغة الجديدة؛ إذ يبدأ الناطق الجديد بممارسة محصوله اللغوي أولاً بأول كلما توافرت له المفردات والتراكيب وتعلمها. وهذا يعني أنه سيكون بحاجة دائمة وماسّة للغته الأم أو للُّغة الانجليزية أو الفرنسية في كثير من الأحيان لأنه لا يمكنه أن يتكلم لغة واحدة من حيث نقص قدرته اللغوية، وعدم كفاية حصيلته اللغوية فيها. هذا بالإضافة إلى عدم اكتمال خبرته في توجيه معلوماته اللغوية الوجهة الصحيحة لغوياً واجتماعياً.

ولعله من الممكن في صدد الحديث عن ثقافة اللغة أن نضيف إلى فرضيتي دريدا فرضية ثالثة منبثقة عنهما ألا وهي: أنه لا يمكننا أبداً إلا أن نتكلم؛ لأنه ليس بوسعنا أن نصمت أو أن نعلن عن عدم رغبتنا في التواصل مع المجتمع، لأنه " لا يوجد بين شخصين سوى الكلام أو الموت، التحية أو الضرب بالحجر"[21].

خاتمة:

ناقش البحث اللغة بمفهومها الواسع من حيث هي مادة ثقافية قابلة للتعلم والتعليم، وبين دور اللغة الاجتماعي، وأهمية دورها في السلوك المجتمعي معتمداً على اللسانيات التطبيقية وعلم اللغة الاجتماعي في تحليل نتائج الاستبيان الذي جرى تطبيقه على طلبة المستويين المبتدئ والمتوسط من طلبة المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. وقد توصل إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- لابد لمتعلمي اللغة من معرفة الفروق اللغوية المهمة بين لغاتهم واللغة العربية من الناحية الاجتماعية.
- من المهم لمتعلم العربية معرفة ظروف استعمال المفردات والتراكيب التي يتعلمها.
- لايمكن إغفال أهمية تعلم التعبيرات الاصطلاحية.
- يحتاج متعلم اللغة العربية إلى تعلم بعض الأمثال الشائعة.
- يحتاج متعلم اللغة إلى تعلم لغة الجسد.
- تعد معرفة مدلولات الرموز والعلامات المرتبطة بالنظام اللغوي عنصراً مهماً لمتعلم اللغة.
- من المفيد لمتعلم اللغة أن يعرف الفرق بين مخاطبة الرجل والمرأة.
- يريد متعلمو اللغة أن يعرفوا الفروق اللغوية الاجتماعية بين أبناء الطبقات الاجتماعية المختلفة.
- ينبغي لمتعلمي اللغة من معرفة التعبيرات المقبولة اجتماعياً.
- يحتاج الطلبة إلى معرفة السلوكات المرغوب بها اجتماعياً من تلك التي يرفضها المجتمع.
- من المفيد لمتعلمي اللغة أن يتعرفوا إلى أدبيات الخطاب.
- وعليه فإن تعلّم ثقافة اللغة هو الطريق نحو إتقانها، وهو الهدف الذي لابد من إدراكه ليصل المتعلم إلى المستوى اللغوي المطلوب.

الهوامش

(1) فالتحية العربية تبدأ من مرحبا أو السلام عليكم ثم تمتد إلى أسئلة لا تكاد تنتهي عن: كيف حالك؟ كيف صحتك؟ ما أخبارك؟ إن شاء الله تكون بخير، هل أنت سعيد؟ هل من جديد؟ وغيرها من الإطالات التي تكاد تصبح روتينية عند العربي، ولكنها غريبة أو مزعجة أو مضحكة عند الأجنبي.

(2) وهذا الاستبيان يسأل عن حاجات الطلبة ليقيس أهمية الموضوع الثقافي لدى الطلبة الناطقين بغير العربية. وهو لا يعني أنّ هذا البعد سيقدم من أوسع أبوابه للمبتدئين، فالطلبة في المستويات المتقدمة أشد حاجة إلى دراسة البعد الثقافي بمفهومه الواسع بكل تأكيد.

(3) هذه المؤشرات من شأنها أن تدل على أهمية البعد الثقافي لأبناء المجتمع الهدف عند المتعلم، وهي وإن لم تكن مستوفية لكل القضايا الثقافية بتفاصيلها إلا أنها – كما يرى الباحث – ذات دلالات واضحة في قياس كثير من المسائل الثقافية بشكل عام.

(4) انظر في: السعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، ط2، ص 12–13.
وانظرذلك كله وزيادة: علي، ونادية حجازي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة،عالم المعرفة، ع318 ص 306–309.

(5) هذا ما ينقله إبراهيم أنيس عن ترجمة تمام حسان ل م. م لويس انظر: أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص34.

(6) للمزيد انظر في: العصيلي، أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1423هـ، ص 241.

(7) بدوي، وفتحي، الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ط2، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، ج1، ص د.

(8) جوزيف، اللغة والهوية: قومية – إثنية– دينية– تر:عبد النور خرافي، عالم المعرفة، ع342، ص79.

(9) انظر: لويس، م. م.، اللغة في المجتمع، تر: تمام حسان وإبراهيم أنيس، ص124–144.

(10) انظر في شيء منه: لارسون، الترجمة والمعنى: دليل التكافؤ عبر اللغات، ص 188–191.

(11) الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، ص112.

(12) انظر فيه: جاس، ولاري سلينكر، تعلم اللغة الثانية، ص 16.

(13) انظر: ليونز، اللغة والمعنى والسياق، آفاق عربية، ص27.

(14) المتنبي، الديوان، ج 4، ص254–255. وهذه القصيدة من بحر الوافر.

(15) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص110.

(16) الحديث هنا من الناحية اللغوية لأن هذه الفروقات موجودة في كل المجتمعات على حد سواء بل إنها في المجتمعات العربية تكاد تكون أقل، ولكن اللغة العربية تفرق في خطابها بين الفئات المجتمعية وهذا ما يعنينا.

(17) قد يغنينا هذا المثال عن الخوض بتفاصيل يعيها القارئ ولا يليق بالبحث العلمي إسهاب الشرح فيها لقدرة القارئ على تبينها بنفسه.

(18) ولعل هؤلاء الذين يمثلون نصف أفراد العينة يصدرون عن قيم خاصة في مجتمعاتهم التي سارت في طريق المساواة بين الجنسين، وقطعت فيها أشواطاً طويلة؛ فهم لا يعبأون بالفروق لأنهم لا يعتقدون بوجودها أصلاً تبعاً لما جرت العادة عليه في بلدانهم وثقافاتهم، وهذا مختلف عما عليه الأمر في المجتمع العربي.

(19) هذا فيما نقله من صحيفة بشر من المعتمر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج1، ص 138–139.

(20) انظر: دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ط1، ص30–36.

(21) صفوان، الكلام أو الموت، ص87.

المصادر والمراجع

أنيس، إبراهيم، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف بمصر، القاهرة، د.ت.

بدوي، السعيد محمد وفتحي علي يونس، 1988، الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ط 2، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، مصر.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

جاس، سوزان ولاري سلينكر، تعلم اللغة الثانية، تر: محمد الشرقاوي، 2003، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة،شرح وتعليق: د.محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، تحقيق: محمد رشيد رضا، 1988، دار الكتب العلمية، بيروت.

جوزيف، حون، اللغة والهوية: قومية – إثنية– دينية– تر:عبد النور خرافي، 2007، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع342.

دريدا، جاك، أحادية الآخر اللغوية، تر: عمر مهيبل، 2008، ط1، الدار العربية للعلوم والنشر، بيروت.

السعران، محمود، 1963، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، دار المعارف، الإسكندرية، ط2.

صفوان، مصطفى، 2008، الكلام أو الموت، تر:مصطفى حجازي، المنظمة العربية للترجمة– مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
العصيلي، عبد العزيز، 1423هـ، أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
علي، نبيل ونادية حجازي، 2005، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع318.
لارسون، ملدريد، الترجمة والمعنى: دليل التكافؤ عبر اللغات، تر: محمد محمد حلمي هليل، 2007، مجلس النشر العلمي لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، الكويت.
لويس، م.م. اللغة في المجتمع، تر: تمام حسان وإبراهيم أنيس، 1959، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
ليونز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، 1987، دارالشؤون ثقافية العامة آفاق عربية، بغداد – العراق.
المتنبي، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتحقيق: د.كمال طالب، 1997، دار الكتب العلمية، بيروت.

The Culture of Language as a Means or an End: A Comparative Look at Teaching Arabic for Speakers of Other Languages

Fatma M. Al-O'mari *

ABSTRACT

The culture of a language is a real part of its soul which can't be separated from it in any way. So both teachers and learners must be aware of this in order to consider culture as one of the systems that governs language as well as audio, morphological, lexical, and the grammatical systems.

Because new learners' purpose is to be individuals who are socially accepted according to their linguistic capabilities that will enable them to communicate effectively with the native speakers of that language – after considering the social cultural dimension of the language-.

This is presented and discussed in this research which is supported with the opinions of a group of students who are learning Arabic as a second language.

Keywords: Language, Culture, Learning.

- The International Institution for Teaching Arabic Language, University of Jordan. Received on 11/9/2011 and Accepted for Publication on 23/5/2012.